كامو والبحث عن السعادة

بقلم جون كروكشانك ترجمة محيي الدين اسماعيل

ان(١) كثيرا من افكار كامو السائدة تحمل السمة الواضحة لاصوله المتوسطية (٢). فمثله في ذلك مثل غرينييه ومونترلان الكاتبين اللذين أثرا تأثيرا واضحا في اوجه معينة من تفكيره ـ ، اذ هو يفصح في كثير من اعماله عن موقف معين حيال الحياة ، يرتبط باقطار مثل الشمال الافريقي واليونان وايطاليا التي تتمتع جميعها بمدنيات متطورة قبل عصر المسيح . فالشمال الافريقي ، بصفة خاصة ، لم يتعرض تعرضا ذا اهمية لتشنجات اللذة المادية ، او النزعة الحسية عموما ، خلال العصور الوسطى . ويؤكد كامو ، بوجه خاص ، على الحسية العفوية، في اثاره الاولى . ففي احدى المقابلات التي اجراها منذ بضعة اعوام، وصف نفسه ـ ومازال ـ (٣) بانه انسان يعي مسؤوليته الخاصة التي يتحملها لانه قد ولد في عصر مسيحي ، وفي ارض تحتفظ بقوة وعنف بالتقاليد الوثنية . فقد قال بان ظروف ولادته قد جعلته مشدودا الى قيم العالم القديم بوشائج هي امتن من الوشائج التي تشده الى القيم المسيحية . وقد بقي هذا الوجه من اوجه تكونه الاول ذا اهمية دائما . فسفره في الخارج واقامته المستمرة في فرنسا منذ عام ١٩٤٢ قد زادنا من ادراكه لانشطاره الوثني ـ المسيحي والجنوبي ـ الشمالي ، ومن الطريف ان نرى ان اوربيا يضع هذا التمييز ، فيتناوله من وجهته المعاكسة اذ يقول :

« ... في الجزائر نفسها ، وبعد الامعان في العبور الى ما وراء اطلس الى الصحراء ، يدرك المسافر بانه قد خلف اوربا وراءه بعيدا ، وهو لم يخلف وراءه الوحدة الجغرافية وحسب ، ولكنه خلف وراءه الصرح المسيحي الاجتماعي ، الاخلاقي ، الثقافي المعقد باسره ، والتنظيم والاعراف المشروعة وجميع حضارات القرون . واذ يدخل المرء عالما مختلفا بعيدا على هذا النحو ، ليست له به سوى اضأل الصلات ، وليست لشخصيته الاعتيادية سوى اضأل المعاني والمواضيع ، فانه عندئذ سيحس بالفراغ يمتلكه ، وسيستشعر بانه حر ـ ان صح هذا التعبير ، في ان يخلق من البداية لنفسه فكرا ودينا وقوانين واخلاقيات خاصة .

كتب هذه الكلمات البروفسور بيسون وهو بصدد تعليقه على الوثنية الحماسية المستحدثة والمصطنعة ، نوعا ما ، التي نادى بها اندريه جيد . ولعل هذه الكلمات ايضا ، تلقي بعض الضوء على الوثنية المستحدثة التي نادى بها كامو والتي هي اكثر عفوية من غيرها ، ولو انها مصطنعة ايضا الى حد طفيف .

وبعد الشمال الافريقي ، يحس كامو بشعور عنيف تجاه اليونان مواطن القيم المتوسطية التي يعجب بها كامو ايما اعجاب ، والتي وجدت تلك القيم اكمل تعبير عنها في هذه البلاد ، ولعلها ما تزال كذلك . ففي مقال موسوم بعنوان « منفى هيلانة » كتبه كامو عام ١٩٤٨ ، ضم بعد ذلك الى مجموعة « الصيف » ، يقارن فيه كامو بين الحضارة الرعوية (الباستورالية) لليونان القديمة وحضارة اوربا المتمدينة القلقة الحديثة. فهو يمتدح ذلك الاعتدال المتشكك في الفكر اليوناني القديم ، اذ يفسره على حساب ما يسميه بالطلقية الفكرية الحديثة . وهذا الشكل الخاص من اشكال الحنين التاريخي ، لم يكن في حد ذاته ، من الامور الجديدة، اذ طالما اعرب عنه بمعابير متشابهة تشابها كبيرا . وحالة كامو هذه ليست حالة شاذة مألوفة ، اذ هو يعرض هذه النقاط من زاوية تنتسب الى الفضيلة المتوسطية ، بيد انها تكاد تكون غير مطروقة من قبل ، وهو يتحدث عنها حديث العارف بالاسباب ، كما يلح ، اكثر من ذلك ، على ان اهم ملامح تراثه المتوسطي قد تكون ذات قيمة واثر في العالم الحديث. وهي تلك الملامح التي تتصل اول ما تتصل بطرائق التفكير ، وباساليب التنظيم الاجتماعي على نحو غير مباشر . ويقترح اخيرا ، الاخذ بما ندعوه نحن ، بحق ، بالطريقة الاغريقية في الحياة ، التي يفضلها على التراث المسيحي الاخير ، باعتبار ان تلك الطريقة الاولى هي أفضل امل لاوربا اليوم . وهذا موضوع يثير الاهتمام والدرس ،سنناقشه فيما يلي ، بيد اننا سنحصر همنا هنا ، بالتعبير الاول عن هذه الافكار في آثار كامو الاولى .

تكشف لنا مقالات كامو الاولى عن صفحتين رئيسيتين هما : الحادية غريزية ، وتأكيد مستمر على التجربة المادية للفرد في بيئته . وفي هذه

(١) من كتاب « البير كامو وادب التمرد » .

(٢) نسبة للبحر المتوسط .

(٣) اصدر هذا الكتاب قبيل مصرع كامو .

المرحلة ، يناقش كامو اقصى الطرفين للخيبة الفكرية والاستمتاع الحسي. فهو دائم الاشارة لعلاقة التناقض القائم بين « فزع الموت » و « متعة الحياة » . وهو يبحث في ذلك عن وسيلة للمصالحة والتوفيق بين هاتين التجربتين ، وذلك عن طريق وسط بين هذين الموقفين المفرطين المسرفين فكرا وفعلا . ولقد احس الاغريق احساسا عنيفا بهذه الثنائية الحادة في الحياة ، فيما وضعوا ايضا من طرائق للفكر تخفف من حدةالصراع الفاجع بين قوى العقل . فكامو هنا يلجأ الى الاغريق بغية تأكيده واقعية معضلته ، ولكي يجد عندهم التوجيه الممكن لوضع حل لهذه المعضلة . ففي تلك المقابلة والتي سبقت الاشارة اليها يقول : « اليونان ظل ونور ، واننا نحن ابناء الجنوب نعلم حق العلم ان للشمس جانبها المظلم . » ويضيف ايضا ان الفكر الاغريقي يحدد نفسه دائما عن طريق الرجوع الى الحدود المتعارضة ، ومن ثم تهيئة ادراك واضح للحدود المتناظرة ، مع مثال من امثلة الاعتدال التي يمكن ان تضع الطرفين ، وتقلل حدة الصراع بينهما ان لم تقض عليه . هذا هو الموقف الاغريقي ، الذي انسحب على تجارب كامو الشمالفريقية التي ادخلت على مقالاته الاولى تناوبا مستمرا، بين الرغبة في الحياة ، والفزع من الموت ، بين التمجيد الحسي وصرامة الفكر ، بين الغنائية « الليريكية » والتنسك . فهذا الدمج الذي انتهى اليه كامو بين الجذل واليأس قد امده ، في النهاية ، باسس التمرد . بيد انه قد انتهى به ، اول الامر ، الى موقف يترنح بين الرضوخ والانعزال الرواقي . اما الحكمة التي نجمت عن هذه المقالة الاولى ، فقد كانت عقيدة من عقائد العزلة والاستقلال المتشامخين المريرين . وهكذا فان تلك الكبرياء المريرة هي ، في جوهرها ، نتاج البحث الفاشل عن السعادة ، اذ هي تمثل الاكتشاف الاولي عن ان السعادة لا يمكن تحقيقها بسهولة ويسر عن طريق الاخذ بخط معين من انماط التفكير الشفيف . ومن المهم ان نلاحظ هنا ان المرء لا يمكنه بسهولة ان يقلع عن البحث عن السعادة ، كما لا يمكنه ان يستبعد استبعادا كاملا الايمان بامكانية تحقيق هذه السعادة في نهاية المطاف . ولقد الح الكثيرون من قراء كامو الحاحا شديدا على القساوة التي ينطوي عليها تشاؤمه . ومن بين هاتيك الخصائص المميزة لتشاؤمه هي تلك الحقيقة القائلة ان هذا التشاؤم دائم التكون ، لكي يفف حيال بيئة متوسطية مشرقة الشمس . وهو في الوقت ذاته ، يختلف بهذه الخصائص عن تشاؤم سارتر الاناني من حيث وحيه واستلهامه ، واظن ان كامو قد اصاب في الحاحه على ان الاستجابة الشخصية هي الموضوع الرئيسي لكافة اعماله . فقد قال في تلك المقابلة التي اجراها عام ١٩٥١ : « وعندما ابحث لاستكشاف ما هو جوهري في نفسي ، اجد انه هو تذوق السعادة ... فهناك اشراقة شمس لا تقهر في قلب اعمالي.. »

ان الثنائية المتوسطية في اسس الفكر عند كامو ، لبدء المرء منذ اول اثر نشره ، ونعني به كتاب « الوجهة والموضع » . فعنوان الكتاب نفسه يوحي بالثنائية ، بالاضافة الى ان فيه اشارة الى الجوانب الصحيحة والمغلوطة في قطعة من المادة . وتؤكد هذه الصورة الصلة الوثيقة بين حدي تجربته الشخصية . يعرض كامو في كتابه هذا ثنائية تذهب الى ثروات الشمس والبحر تؤكد الفقر الانساني ، وان لذائذ الحس تجعل الموت اشد فجيعة واعظم هولا ، وان المتعة الممعنة فيما هو مباشر وحسي ، تناظر مشهدا من ملاحظات غير مناسبة دينية لاعزاء فيها . وفي كل مثال من الامثلة تزيد « السعادة » و « المعاناة » من حدة بعضهما البعض . وان حدة الاستجابة ، عند كامو ، لكل من « السعادة » و « المعاناة » انما تنجم من حقيقة كونهما يتعايشان في حالة التناظر . وان كامو مدرك تمام الادراك للتقائض الفنية في قصة هذه التجارب . بيد انه لا يزال متمسكا في انها تحتوي ، في رحمها ، على جوهر استنتاجاته عن التجربة الانسانية . فهناك الشيء الكثير في هذه النظرة . ومع ذلك فان قراءة كتاب « الوجهة والموضع » مرة اخرى ، وفي ضوء كتابات كامو الاخيرة لجديرة بان تعرفنا عما في مضمون هذا الكتاب من الغموض وانعدام الشكل . على ان هناك برهانا ساطعا على الذاتية القوية الآسرة التي تكمن وراء هذا الكتاب . غير ان هذا الكتاب ذاته ، يظل سردا غير ناضج لافكار كامو ، من الناحية الجوهرية . ويصف لنا هذا التشاؤم وصفا اصيلا الرغبة الغريزية لاحد الشباب في المتعة دون ان يقدم لنا اي مضمون واضح لهذه الرغبة ذاتها . اما التأكيد على الفقر والوحدة والموت ، فلم يكن سوى نتاج عرضي تقريبا ، لبحث مهدد بالفشل ، او هو فاشل فعلا ، بحسبما يظهر . فالتأكيدان المتناظران لا تربط بينهما تلك الكبرياء التي تستطيع ان تميز ، حقيقة ، هذه الثنائية دون ان تتمثل ايا من مصطلحاتها .

يتألف كتاب « الوجهة والموضع » من ستين صفحة من النثر ويتكون من خمسةاقسام،هيمزيجمنالسيرة الذاتيةوالتأملالمعمم،وكل قسممنهذهالاقسام يترنح دون ان يستقر ، بين المقالة والقصة القصيرة . فالقسم الاول الموسوم بعنوان « السخرية» هو دراسة للمناظرة بين الشباب والشيخوخة تنتظمه سلسلة من الملاحظات عن الدين والوحدة الانسانية وحقيقة الموت. فالجو والشخوص الموصوفون هناك ، يظهرون كما لو كانوا من منزل كامو واسرته ، بالرغم من انه ليس هناك اي تصريح بذلك . فهناك امرأة عجوز ـ لعلها صيغت من نموذج جدته ـ تخشى اقتراب الموت . وهناك رجل عجوز ـ يشبه عمه ـ يدهشه بل يصيبه بالياس ، هذا الشباب الحديث . وهناك ايضا شاب يفضل هو واصحابه ان يقضوا الامسية في دار السينما على ان يقضوها مع الرجال الطاعنين في السن . فالمرأة العجوز متدينة ولكن بسبب الخوف لا الحب. وهناك تعبير لباسكال يعيد تركيب كامو ، فيصف هذه المرأة بانها كائن اخذته « تعاسة الانسان في الله . » فديانة هذه المرأة هي اخر ملاذ لها . هي نوع من الياس، او هي محاولة اخيرة لتخفيف المرارة من حقيقة الموت . ويمكن قياس قيمة هذه الديانة بالحقيقة القائلة بان هذه المرأة لو استطاعت ان تبل من مرضها الراهن ، اذن لكانت على اهبة الاستعداد لان تزور عن تمثال العذراء المصنوع من الجبس لتلقي بنفسها في العلاقات الانسانية وفعالياتها . وعندما يذهب الشباب الى دار السينما ، وتتخلف ابنتها الوحيدة ، فانها عندئذ تستشعر الوحشة بحدة وعنف . انها خائفة ، وان حديثها السري مع الله ، لم يقدم لها اي عزاء ، فهي تتشبث يائسة بيد ابنتها . وهنا يعلق كامو فيقول : « ان الله لم يفعل لها شيئا سوى انه حرمها من الصداقات الانسانية ، فتركها وحيدة . انها لم ترد ترك عالم الناس . »

اما الرجل العجوز فيتحدث دونما انقطاع ، عن شبابه وعن اخفاق الجيل الجديد في استمتاعهم على الشكل الصحيح . انه يحاول جاهدا ان يثير اهتمام الشباب ، فهو يزركش اقاصيصه ليجعلها اكثر اثارة وتاثيرا . ومع ذلك ، فهو يعلم طوال الوقت ، وهم يعلمون ايضا بانه رجل طاعن في السن ،لانفع فيه ، وسرعان ما يقلع الشباب عن الاستماع اليه ! انهم يستمهدون الراحة في تخلصهم من الروتين القاتل عن طريق لعب البليارد ولعب الورق والسينما ، لا في الاستماع الى حكايات رجل

عجوز . ثم تموت المرأة العجوز بعد ذلك ، فنحصل على وصف لعجز الشاب عن الاحساس بالحزن والفقد الاصيلين ، على نحو يذكرنا بموقف « ميرسول » حيال امه ، بعد عدة سنوات ، في قصة « الغريب ». فالتناظر بين الشباب والشيخوخة ، والحياة والموت ، والمتعة والخوف ، كل ذلك موجود خلال فصل « السخرية » . وهذا التناظر القائم بين الزمر المختلفة الاعمار ، هو ايضا سخرية تسم حياة كل فرد بميسمها . ويضع كامو تعليقا يعترف فيه بذلك ، ثم يعود فيعرض عنه اذ يقول :

« .. امرأة يدعها المرء وحدها تذهب الى دار السينما . ورجل عجوز لم يعد احد يصغي اليه . وموت لا يحرر احدا . هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى كل اشراق الحياة . فما الذي يهم لو ان المرء تقبل جميع هذه الاشياء ؟ فهناك ثلاثة مصائر متشابهة واضحة قد تشابكت . الموت ياتي لكل انسان . ولكن لكل انسان موته الخاص به . وبعد ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فان الشمس تظل تدفيء عظامنا . »

تفصح هذه السطور عن التقبل المرير لهذه الثنائية الفاجعة التي تبناها كامو في هذا الوقت . انه تقبل تخف فيه غلظة الشباب لنجدة الطراوة اليافعة . فالوحدة والشيخوخة والموت ، من حيث هي مجربة في واقعها الانساني المباشر ، جميعها تبتعث الشاب لمواصلة استمتاعه، انها جميعا تؤكد ضرورة البحث عن السعادة ، ولكنها تؤكد ايضا ضعفها وقصر أمدها نسبيا .

وفي القسم التالي الموسوم بعنوان « بين نعم ولا » ، يشير العنوان ايضا الى صراع الحياة الانسانية . فيكتب كامو عن « موطنه » في الجزائر ، ويصف بشيء من الاسهاب فقر ذلك المواطن وعتمته ، ويقارن مقارنة حادة بين الصمت المزعج من امه الصماء والصرخات الفاضبة من جدته المتجبرة الطاغية . فموقف الولد حيال امه التي يعيد صمتها للذاكرة صمت ام « ريو » في قصة « الطاعون » ، هو مزيج غير مريح من الحب والخوف ، والشفقة ، والواجب والاحساس بالفجوة بينهما . وان طبيعة العلاقة القائمة بينهما ، تجعله واعيا لنفسه ، مدركا لذاتيته المنفصلة ، على نحو لم يكن قد جربه من قبل . ومرة اخرى ينتهي كامو، الى ملاحظة « التقبل » غير ان تقبله في هذه المرة الثانية هو تقبل انعكاسي اكثر مما كنا وجدناه في فصل « السخرية » ، ولكنه غريزي وانساني اقل من ذاك . انه موقف موقت يؤخذ به عندما تكون الحياة قد جربت اكثر من ذي قبل ، وفكر فيها على نحو اوسع . « وبما ان هذه اللحظة تكون بمثابة فترة وجيزة تقع بين النقض والاثبات ، فانني سأترك للحظات الاخريات ، الامل في الحياة او اليأس منها . »

والمقطوعتان الثالثة والرابعة « الموت خلال الروح » و « حب الحياة » تحتويان على ذكريات كامو عن تجواله في تشكوسلوفاكيا وايطاليا وجزر البالير . ويجد كامو ان اروع ما في السفر قوته الى تحمل المرء على ان يسأل نفسه باستمرار ويسأل العالم الخارجي . وهنا يناقش وعي ذاتيته المنفصلة نقاشا فيه تأكيد اكثر مما كان في مطقوعة « بين نعم ولا » فهو يقول ، ان قيمة السفر هي في قدرته على ازعاج الفرد عن طريق الابتعاد به عن ملاذ الروتين المريح المألوف . ويلقي السفر عن انفسنا ، ولو موقتا ، هاتيك الاقنعة التي نختبيء عادة وراءها . فبوسع السفر ان يجهزنا برؤيا جديدة مثيرة تكشف لنا عن وحدتنا الجوهرية وعن عدم الفتنا مع انفسنا ، او على الاقل يجهزنا ببعض الظروف التي تهيىء تلك الرؤيا . انه يهتك ستار العادات ليكشف لنا عن خصائص الجزع الشاحبة . فالانسان يقابل نفسا غير مألوفة لديه ، وذلك خلال صلته بعالم خارجي لا الفة فيه. ففي براغ وبالما، لم يكن يعرف طريقة الانتقال من مكان لاخر ، لجهله بنظام المواصلات في المدينة ، كما كان كل شيء يفلفه الغموض هناك بسبب عجزه عن التحدث بلغة تلك البلاد . ومن الحق ان يقال ، ان مثل هذه المعضلات سرعان ما يمكن التغلب عليها ، ان لم نقل سرعان ما توضع الحلول الناجعة لها ، وذلك عن طريق البديهة المشتركة وشيء من الاصالة الابداعية . غير ان هناك فترة اولية من الاغتراب Alienation . فنفس مغتربة مهجورة في وسط مغترب ستعاني ، ولا مراء ، ضربا من تجربة تشابه قلق الانسان الميتافيزيقي الغريب ـ الانسان المغترب . (*) فان احساسا قد لايختلف عن احساس « روكنتان » في قصة « الغثيان » لسارتر ، انما ينجم عن احساس المسافر « بالتباين القائم بينه وبين القضية » . ويجد كامو في تجربه السفر ، احدى الاشارات للعبث ، وهي تلك الاشارات التي يمحصها في اسطورة « سيزيف » .

وعندما ينتقل كامو من تشكوسلوفاكيا الى ايطاليا ، يحس هنا « الرجل القادم من الجنوب » بانه في دعة موطنه . فهو يستجيب بتهيؤ وبصورة طبيعية اكثر الى شمس ايطاليا ومشاهدها . ومع ذلك ، فانه حتى في ايطاليا ، يرافقه شعور بالقلق ، بالرغم من الدفء والجمال اللذين يحيطان به فالمشاهد جميلة ، غير ان الجمال يتضمن صفة لاشخصية

(*) آثرنا هنا استخدام لفظة « المغترب » مقابل Outsider الانكليزية ، على اللفظة التي شاعت اخيرا وهي « اللامنتمي » ، لان لفظة « المغرب » قد تدل ـ بحسب ظننا ـ على الموقف الجذري الذي قصد اليه ، وهي الاغتراب والانفصام ، وان « اللاانتماء » ما هو الا نتاج الشعور بالوحدة والعزلة والوحشة ، أي بالاغتراب .

شعر

من منشورات دار الاداب

الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
قصائد عربية	سليمان العيسى
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
عائدون	يوسف الخطيب

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

مزعجة . وحتى الق السماء الرائق ينطوي على لون من اللامبالاة . ففيما يحدق هو في المنظر المستعلن امامه ، يجد ان بوسعه ان يفتقد في هاتيك المشاهد الوعد القاطع بخلوده . بل على العكس من ذلك ، فان الخصائص الباقية من ذلك المنظر الطبيعي ، ستظل تذكره بوجوده القصير الامد . ولكنه بالرغم من ذلك كله ، هو مستعد لتقبل تلك الثنائية الدائم الاحساس بها . فالجمال الحاد في الريف الايطالي ، يثير فيه الارتباط الوجداني بحياة الحس ، بحيث ينكمش من صور الوجود اللاجسماني الذي يتضمنه خلود الروح :

« اي نفع لي من حياة تعاش مرة اخرى في الروح ، اذا لم تعد بالنسبة لي عينين ارى فيهما شيئا ، ولا يدين المس بهما كروم فسنزا ، ولا جلدا احس به مداعبة الليل على الشارع من مونت بريكو الى مغنى فلمرانا » .

فالاحساس بالفناء الجسدي الذي لا تكاد تخفيه هذه الكلمات هو الذي يشرح لنا ذلك « الحديد في الروح »(*) الذي تشير اليه القطعة الاولى « الموت في الروح » من المقطوعتين اللتين كتبهما كامو عن السفر . ومع ذلك فان سخاء ايطاليا من حيث هو سخاء ، ليجلب في النهاية العزاء ، كما يجلب نذيرا لايخطىء . فالمسافر يمتلك قدرة يستطيع بها ان يستقبل الروعة الباقية في العالم الطبيعي ، كما يستقبل اجتيازه العابر الخاص به من مشاهد جميلة « لاشخصية » ومن سماء غير مبالية ولا مكترثة ، ولكنها هي الاخرى متألقة ناصعة . على ان هذه القدرة على تمييز الاشياء المعروضة تمييزا هادئا ، يظل امرا مستعصيا على البلوغ دوما . فمرور الزمن ليس بمقدوره ان يجعل قوة الزمن المدمرة للفرد اهون وقعا على الانسان . فالنضال المشتبك فيه ، هو صراع قاس ، والضرورة الملحة اليه هي مريرة ايضا ، ومع هذا ، فان رؤيا ايطاليا امر هام بالنسبة لكامو ، لانها تؤكد الحاجة للربط ما بين الشجاعة والصفاء. وهذا الضرب من الشجاعة ، سيثبت ، مستقبلا ، انه صفة جوهرية من صفات ذلك التمرد الذي يمارسه كامو ، ويوصي الاخرين بممارسته .

والقطعة الثانية عن السفر الموسومة بعنوان « حب الحياة » تتضمن تذكارات عن زيارة قام بها لجزر الباليري فهنا مرة اخرى ، يتأكد لدينا الصراع الفاجع المؤتلف من الحدة المرغوب فيها ومن قصر الحياة الذي لامناص منه . فالاستمتاع العفوي بالحياة في بالما والجمال الطبيعي في ابيزا وسان فرانسسكو يؤكد وضع الفرد من حيث ارتباطه باللحظة الخاطفة في لا زمنية العالم . ففي هذا القسم ندفع بكامو ، تجربة الفجوة القائمة بين الفرد والعالم الطبيعي ، الى ان يسرد حدي الثنائية مرة اخرى في تلازم فاجع اذ يقول :

« ليس هناك من حب للحياة دون يأس منها . » وينبغي ان يؤخذ هذا القول من كامو ، على اساس انه تفسير من جانبه لحقيقة ان التشاؤم والاحساس الفاجع يراودان دوما بحثه عن السعادة .

وعنوان القسم الخامس والاخير ، هو نفس العنوان العام لهذا الكتاب « الوجهة والموضع » . فمن الناحية الاولى شمس وسماء ونجوم ومشاهد طبيعية ، ومن الناحية الاخرى كائنات بشرية وجميعها تترجم الى لفظتي « وجهة » و « موضع » ، على التناظر « او الطباق » بين ماهو ابدي ظاهر وما هو فان بحكم البرهان الدامغ ، فان مايبدو رباطا وثيقا لاينفصم ، انما هو رباط يوثق اللازمني بالموقت ، والحبور بالموت اي « الناس بعبثهم » ، ولا يستنكر كامو في هذه الصفحات الاخيرة مبدأ « التقبل » ، غير انه يلجأ مرة اخرى للالحاح على اهمية الاستمتاع بتمجيد الحواس الوجيز العمر ، ذلك التمجيد الذي يجعل من الحياة امرا ممكنا . فهو يقول بان الحياة قصيرة ، وان الانسان يرتكب اثما ، اي انه يضيع على نفسه فرص المتعة . ويضيف كامو ايضا اعتراضا واعيا على الاخلاقية المسيحية اذ ينادي بان مملكته هي من هذا العالم .

ويختتم كامو هذه المقالة بما هو ، في النهاية ، قولة مأثورة في اليأس: « لو انني اصغيت الى السخرية الكامنة في قلب الاشياء ، اذن لكشفت لي عن نفسها . وتتغامز السخرية بعينيها الصغيرتين البراقتين وتقول : « عش كما لو ان .. ، وبالرغم من البحث الطويل ، فهذه هي خلاصة حكمتي » .

وينبغي علي ان اوضح هنا ، من هذا التلخيص لكتاب « الوجهة والموضع » بان هذا الكتاب في حقيقته لايحتوي على حجج موحدة ، اذ ان كل مقالة من مقالاته الخمس تتبدى مواقف عاطفية مشرقة في ضوء تفكير اخر . وهناك ايضا غموض شديد في الطريقة التي يتوصل بها كامو الى استنتاجاته . فهذه الاستنتاجات لاتؤلف في نفسها كلا متراصا ،ولكنها تترنح دونما تثبت بين قطبي السلب والايجاب . فخصائص هذا الكتاب تجعل من السهل علينا ان نتصور لماذا اعتبر كامو كتابه الاول هذا غير مرض من الناحية الشكلية ، فالحقيقة ان كتاب « الوجهة والموضع » يحتوي الموضوعات الاساسية لاثار كامو ، مستقبلا غير ان عرض هذه الموضوعات ، في هذه المرحلة ، لم يكن ملائما ولا متماسكا . على انه في الوقت نفسه ، لايستطيع احد ان يقرأ هذه المقالات الاولى دون ان

(*) في الاصل تلاعب بلفظتي « حديد » و « سخرية » . « المترجم »

دواوين نزار قباني

من منشورات دار الاداب

الثمن

قالت لي السمراء	٥٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل

زينة لكل مكتبة

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

يتأثر بهذا الشعر الكالح الذي بقي الصفة الذاتية الرائعة الرفيعة لكثير من اثار كامو النثرية .

اما كتاب كامو الثاني ، فهو اربع مقالات ، بعنوان « الاعراس » . نشر في عام ١٩٣٩ بعد ان باشر الكتابة الفعلية في العام الذي سبق ذلك العام . وبالطبع فان كتاب « الاعراس » قريب زمنيا من كتاب « الوجهة والموضع » . والكتابان متشابهان في كثير من النقاط ، من حيث مادة الموضوع . ففي كتاب « الاعراس » يبحث كامو مرة اخرى تلك المعضلات القديمة المزمنة ذاتها : معضلات الوجود الانساني والزوال الفردي ، ولكننا نجد هذه المعضلات متطورة اكثر مما نجدها في الكتاب السابق . انها معروضة في حدود فكرية اشد صرامة ، بيد انها تتمتع مع ذلك ، بحدة شعرية رائعة . فالتمجيد الغنائي « الليريكي » يشترك مع اشارات اكثر دقة وضبطا ، ومع وصف تفصيلي لمناظر الشمال الافريقي . واذا ماتوغلنا خلال المقالات الاربع ، وجدنا هناك دليلا يشير الى رمزية واعية للشمس والبحر والصحراء . فموضوعات الحبور واليأس التي اعلن عنها في كتاب « الوجهة والموضع » سابقا ، تخضع الان في هذا الكتاب ، الى تأمل اكثر عناية وشمولا . وبالرغم من ان كلا الموضوعين ما يزالان قائمين في كتاب « الاعراس » الا ان التأكيد ، هنا ، ينصب على مرح الوجود المادي . فالحد الايجابي من تلك الثنائية التي نلقاها في كتاب « الوجهة والموضع » يفرد هنا جانبا ، لتجري عليه عملية تأمل خاصة . وبعد ثلاث سنوات من ذلك ، سنجد ان التأكيد في « اسطورة سيزيف » ينقلب الى تأكيد على عبث الوجود الانساني . ففي هذا المقال المتأخر الطويل يحظى الحد السلبي الموجود في ثنائية « الوجهة والموضع » باهتمام خاص .

« فالاعراس » هو ايضا عمل قصير نسبيا ، اذ هو يحتوي على نحو ثمانين صفحة . ويبدأ كامو باقتباس استهلالي من ستندال يوحي الينا بان كامو سيركز همه هنا على الجانب السلبي التشاؤمي من كتاب « الوجهة والموضع » ، بخلاف ماقيل توا . وقد اقتبس كامو هذا القول من « دوقة بليانو » في كتاب ستندال الموسوم بعنوان « سجلات ايطالية » يقول هذا المقتبس « لقد خنق الجلاد الكاردينال كارافا بحبل من حرير ثم انقطع الحبل . ومرتين حاول الجلاد . اما الكاردينال فكان يراقب دون ان يتنازل فينطق بحرف . » ومن الحق ان يقال ان كامو يستخدم هذا المقتبس كرمز عنيف لحالة انسان فان في كون خبيث . ومن الحق ايضا ان يقال ان هذا المقتبس يحمل في اطوائه ، منذ بداية كتابه « الاعراس » ايحاء باننا سنجد في هذا الكتاب احساس كامو بالمأساة الانسانية ، بعد ان تذرع بتعبير حاد . وعلى اية حال ، فينبغي الا ننسى قولة كامو السابقة بان اليأس الرفيع من الحياة ، انما هو وثيق الصلة بالعاطفة الرفيعة نحو الحياة . وتبعا لذلك ، بالرغم من ان كتاب « الاعراس » يستهل بمقتبس يوحي بتفسير تشاؤمي رمزي ، وبالرغم من ان التشاؤم يظل دائما وراء كل صفحة من صفحات هذا الكتاب ، الا انه ليس هناك اي تناقض عند كامو في سياق العالم الوجداني والفكري. فالحقيقة هي ان هذه المقالات تمضي لتؤكد لنا حبور الحياة في الجسد. وقد وضعت هناك ، بالطبع ، بعض التحوطات ، اذ ان كامو يدرك ، مثلا ، ان مثل هذا الحبور يمكن ان يجرب لفترة وجيزة من الزمن خلال امتداد حياة كل فرد من الافراد . فاذا ما وضعت هذه الصفات في موضعها ، فان كتاب « الاعراس » سيظل عندئذ ، نشيدا من اناشيد المجد والمديح لمباشرة الوجود المادي . فهو يؤكد تأكيدا وفيرا ما ذهب اليه المؤلف من ان السعادة هي موضع الاهتمام الرئيسي في جميع آثاره ، وذلك عن طريق جواب المؤلف نفسه ما يدعوه « بالتحلل العظيم في الطبيعة ».

يبدأ التمجيد المادي في « الاعراس » بدعوة حادة ذات الوان شتى لهجوم يقوم به الريف الجزائري على الحواس . فالمشهد يغتسل في الشمس ليكون بحرانا من اللون والضياء . والهواء مثقل بعطر الازاهير الساطع ـ أزهار البوغاني فيلاس (١) الارجوانية والوردية وازهار الخطمية الحمراء والسوسن الازرق وازهار الشاي الكثيفة كثافة القشطة . والبحر يزركشه اللون الفضي واللون الابيض ، والسماء بلون ازرق فاتح . والريف تعبره الحافلات المطلية بدهان اصفر كلون الشقائق الصفراء . وبين آونة واخرى ، يرى المرء في ذلك المشهد عربة لاحد القصابين وهو يدرج الى طيته . ذلك هو الفيض الغامر من الانطباعات الحسية المنطلقة في هذا الجو الشفيف .. خمرة كريمة تترنح منها السماء . وذلك هو المكان المثالي للاستحمام الشمسي والاستحمام في البحر . ويقول كامو ان الشواطيء الجزائرية تتجاوب بضحكات الشباب الذين تعيد للذاكرة اجسادهم اولئك الرياضيين في ديلوس .(٢) وفي البحر نفسه ، هاتيك الزوارق الموسقة باحمالها من الجوز لاولئك الالهة والالهات اليافعين الذين يحس نحوهم جميعا برباط اخوي عميق. فالاحاسيس تشحذ هناك ، والدم يتوفر ، وينبغي على كامو ان ينعت كل انسان لا يستمتع بهذه الظروف بانه انسان ابله معتوه . والخجل كلمة لا معنى لها على الشواطيء الجزائرية « .. فاذا كان هناك اثم تجاه الحياة، فهو لا يكون في اليأس منها بقدر ما يكون في الامل بحياة اخرى تحاول التملص من هذه الحياة هنا والان ! » فالاثم بقدر ما تعنيه هذه الكلمة ، يجب ان يحمل على أنه هو الازورار عن الوجود المادي، لا المعانقة العفوية المليئة لهذا الوجود . ويحس كامو بانه لن يكون قادرا على الاتصال الكافي ، او الاتصال القريب لحد كاف ، بالعالم الطبيعي . ان هذه الرغبة في الالفة الوثيقة الدائمة مع الطبيعة ، او الرغبة في هذه « الاعراس » مع الطبيعة التي ينتظمها عنوان هذه المقالات الشامل ، انما تظهر مرة بعد اخرى في مقطوعات غنائية (ليريكية) حسية . فهو يهلل بشعور من احالته الريح والشمس الى نموذج من نماذج هذا الريف المترامي الاطراف . ويحس بدمه ينبض بايقاع مع نبضات الشمس وهي في السمت . واذ يقف الى اطلال « جميلة » يحس بانه قد انتزع من نفسه ، ولم يعد يعي سوى هوية هذا المنظر القائم امام عينيه . « ... اني انا هذه الريح ، هذه العمد ، وهذا السبيل المشاد في الريح ، وهذا الجلمود من البلاط الذي يبعث الحرارة ، وهاتيك الجبال المحيطة بالمدينة المحطمة .. »

---

(١) هي الزهرة التي نسبت للملاح الفرنسي « بوغاني فيلي » الذي طاف الارض في (١٧٦٦ ـ ١٧٦٩) .

(٢) ديلوس هي الجزيرة العائمة ـ بحسب اساطير الاغريق ـ وهي احدى مجموعة جزر « سكليد » . كان فيها معبد « ابولو » . اشتهرت بالالعاب التي عرفت باسمها « الديلية » . وهي ايضا موطن « لاتو » ام «ابولو» .

وتذكرنا الالعاب « الديلية » والتنافس في قول الشعر ، بمنافسات العرب الشعرية وبالعابهم واقداحهم وازلامهم في الكعبة ، كما يذكرنا « ابولو » اليوناني « بهبل » العربي ، وتذكرنا« لاتو » « باللات »العربية ايضا . ولدينا ظن قد يبلغ مبلغ اليقين ، ان هناك صلات بين هذه الطقوس والاسماء ، نتركها للباحثين العرب .

« المترجم »

ولقد توحي هذه السطور ، لاول وهلة ، بموقف فيه نشوة من وحدة الوجود ـ شيء يشبه عبادة الارض واستواء الذات والاعيان Objects الطبيعية من حيث الهوية ، والتي تؤلف ، مثلا ، جوهر كتاب « قصة قلبي » للكاتب « رتشرد جيفرز » . وفي الحقيقة ان نظرة كامو الى المشاهد الجزائرية هي لاعاطفية ولاروحية من حيث جوهرها ، بالرغم من المفردات الغنائية (الليريكية) التي استخدمها لوصف تلك المشاهد. ان هذا الفيض من التمجيد الذي نلقاه في هذه السطور المقتبسة آنفا ، ليهيب بكامو ان يساوي في الهوية بين الطبيعة والانسان . وهذا التوافق من شأنه ان يترك الطبيعة في غيرتها Otherness ، دون ان يمس هذه الغيرية بشيء . ومهما تهيىء الطبيعة من متع وملذات مادية، فانها تظل مادية وغريبة على حالها . فكامو هنا لا يلعب دور الموحد للوجود الذي يجعل الجبل والحقول تعاود الحياة بالروح . غير ان ذلك يصح قوله عندما يأخذ باستخدام اللغة الشعرية بشأن التساوي في الهوية (بين الطبيعة والانسان) . فالذي يرضيه هنا ، ليس هو أسباغ الروحية على المشاهد الطبيعية ، بل هو الشعور بالتوافق بين هذه المشاهد وبين حالته النفسية ، فيما نرى الموحد للوجود يبحث عن ملاذ يهرب اليه من نفسه ، وذلك عن طريق الطبيعة التي اسبغت عليها الروح . فكامو يالم اشد الالم ، اذ يؤكد الواقع المادي الصارم للاعيان الطبيعية . فهو يقول بأن الجمال الجزائري الذابل لا يلقي الينا بأي درس روحي. انه يقدم لنا الاسراف السخي الثر في الحس ، بيد انه لا يزود الانسان الباحث عن غذاء الروح او طمأنينة الفكر بأي شيء من هذا القبيل . ولكن ينبغي ان يستمتع بهذا الجمال ، ولو انه لا يشبه هاتيك المشاهد الاكثر انسانية ، في اوربا ، حيث يغري الناس بالهروب من انسانيتهم ومن فنائهم ، عن طريق البحث عن تخلصهم من انفسهم بوساطة عزاء الطبيعة ، ومن ثم العثور على ذلك التخلص عثورا ظاهريا فحسب . ان سماء الشمال الافريقي اللافحة ، لا تحمل اية رسالة من رسالات الامل او التخليص . وهنا يقول كامو في سماء الجزائر :

« بين هذه السماء والوجوه المصوبة نحوها ، لا يوجد اي سبيل للتعرف على الميثولوجيا ، والادب والاخلاقيات او الدين . ليس هناك سوى الصخور والجسد والنجوم ، وتلك الحقائق التي تستطيع ان تلمسها اليدان . » (1)

ان كامو يرى تلك المضامين الفاجعة لهذا الجلال اللاروحي الراسخ الاركان في هذا العالم الطبيعي . ففي خضم هذا السرور الحسي ، يدرك كامو ، كدأبه ابدا ، تلك الثنائية المخلدة لذاتها ، والتي رأينا انها الموضوع السائد في كتابه « الجهة والوضع » ، وانها هي التي اهابت به هنا في كتابه « الاعراس » ان يذكر بان ما يمجد الحياة يزيد ايضا من حدة عبثها . فلقد وصف بالفاظ غنائية (ليريكية) حياة الحس ، وهلل لكمال هذه الحياة . على ان هذا الكمال نفسه ، وحدة التجربة ذاتها ، تنطويان على حدين مزدوجين . فالحياة التي يصفها كامو ، هي اولا ، لا يمكن ان يستمتع بها الفرد الا لامد موقوت ، ثم ان بهاءها لا سبيل الى الافلات منه طالما كانت الحياة باقية ، ولكن الحياة لا يمكن ان تدوم الى امد طويل . اما اولئك الذين يجازفون بكل شيء من اجل الجسد ، فانهم يعلمون حق العلم ، بان عليهم ان يخسروا كل شيء عندما تحين الشيخوخة ، ثم الموت بعد ذلك . فحقيقة الموت ، اذن، هي حقيقة راهنة في المشاهد الجزائرية بصفة خاصة ، تلك المشاهد الثرية العطاء ، والتي تحدو الاحاسيس بان تأخذ نصيبها هناك . ويعبر كامو عن حيرته هذه بقول سبقت الاشارة اليه اذ يقول : « فزعي من الموت ، يسيطر على قلقي من الحياة » ، والحد الاخر المتصل بالحد الاول ينجم عن « القلق من الحياة » ، فجوهرها المتعة المادية هو مباشرة تلك المتعة ، والمجازفة بكل شيء من اجل الجسد ، هي المجازفة بكل شيء من اجل ما هو راهن ، بصفة مباشرة . غير ان المباشر ، كما يفسره كامو هو امر يجرب على انه تناظر في المشاهد المستمرة الوجود ، والتي يمكن استخلاصها من هاتيك الجبال والسماء الابدية . اننا لا نستطيع الا ان نبحث عن المتعة في الطبيعة ، لاننا كائنات انسانية ، لا كائنات خضارية (نسبة للخضار) ، وان وعينا لانسانيتنا يشمل وعينا لفنائنا . وعلى العكس من ذلك ، فالطبيعة ليست فانية ، ولكنها تعمل على تخليد ذاتها بذاتها . ففصول الصيف الجزائرية تتتابع الواحد تلو الاخر ، والبحر والشاطيء يمضيان في غزلهما . وهذا هو الصدع الثاني في تجربة السرور الحسي ، ويجد كامو المتعة الطبيعية في الشمس والبحر والجبل والريح ، ولكن هذه الاعيان جميعها التي هي موضوع مرحه ، ستظل بعده ، وستظل بعد ان تنفذ قدرته على ممارسة تجربتها ، بل ستظل بعد جميع الكائنات الفانية طوال جميع القرون . وهنا ، وبهذا الجانب من جوانب فنائه ، يجد كامو ان السعادة قد شوه وجهها موة اخرى.

فالاقرار بالزوال الانساني الذي تؤكده ديمومة الارض والسماء ، هو احد الموضوعات المألوفة . وبوسع المرء ان يربط ، فورا ، هذا الموضوع بعواطف الاشفاق على النفس وبالتعبير عن الكبرياء السوداوية والبحث عن حل روحي فيه عزاء . ومهما يكن من شيء ، فاني اظن ان كامو يعمد لادخال تأكيدات جديدة على هذا الموضوع . فهو لا يضيف صرامة جديدة الى هذا الموضوع وحسب ، بل هو يرفض المواقف التقليدية ، وذلك عن طريق الحفاظ على ما يحتويه نصيبه من صفات مزعجة متعبة. وبكلمة اخرى ، « فالتقبل » بالنسبة لكامو لا يشمل اية خطة واعية او غير واعية تستهدف تخفيف حدة الحيرة الانسانية . لذا فاننا نراه يلح على صراع لاسبيل الى وقفه ، هو صراع قائم بين الرغبة في الحياة وحقيقة الموت ، بين « الهنا » و « الان » اللتين يعرفهما من جهة وبين « الما بعد » التي لا يعرف عنها شيئا ، وكل ذلك من اجل ما يؤمن بانه هو نقاء الفكروشرفه . فهو يرى في الحياة الموقتة الفانية ، الحقيقة الوحيدة والسعادة الوحيدة اللتين يستطيع التثبت منهما . وهو يرى في هذا الموقف ولاء لوضعه الانساني ، اذ هو يذهب الى ان اي شكل من اشكال العزاء ، لا يتعدى كونه فرضية مجردة لا تقدم اي اثبات . ففي هذا العالم اليافع ذي اليقين الحسي والريب الروحي ، يصبح الايمان مرتكزا على المشاهدة لا غير . وهنا يقول:

« واني اذ ارفض كل « الما بعد » لهذا العالم ، فان ذلك يرجع الى اني انا ايضا لست مستعدا لان ابرأ من جميع ثرواتي المباشرة . انني لا اؤثر الايمان بان الموت يفتح المغاليق لحياة اخرى . انه بالنسبة لي باب مرصود .. وكل مايقترح علي انما هو محاولة لالقاء عبء الحياة عن كاهل الانسان . »

فكامو هنا ، ينص ، بدقة وتعيين ، على ما هو جلي فعلا في كل حالة من الحالات : فقراره الذي يتخذه للمجازفة بكل شيء من اجل

(1) من حق كامو الفرنسي ان يحس هذا الاحساس حيال الجزائر العربية . فهو نبتة اقتلعت من طينتها ـ على حد قول زفايغ ـ اذ فارق وطنه اللنمسا ، واستوطن امريكا اللاتينية .

« المترجم »

الحياة المادية المباشرة ، ان هو الا نتاج الاختيار التعسفي . اما ان هذا الخيار يقع ، بشكل طبيعي على الشمال الافريقي ، فلا يعني ذلك انه سيكون اقل تعسفا وجورا . وبما ان كامو قد واجه حيرة كتلك الحيرة التي واجهها باسكال من قبل ، فانه يجازف بالاتجاه المعاكس . فرفض النظر في اي احتمال لوجود ما بعد الحياة ، هو وجه من اوجه الاعتراض العام على اي مطلق او تجريدات قد يتعلمها من المشاهد الجزائرية . فهو يشد الى حواسه كل ما هو راهن ، ويتعامل مع كل شيء جميل ، وليس هناك من خلاص فيما وراءه ، او بعيدا عنه . وهذا الجحود المباشر اللامتردد امر مثير وغير طبيعي من كاتب في قامة كامو وسمعته . انه يفصح في كتاب « الاعراس » عما يمكن تسميته « بالالحاد الساذج » طالما كان ذلك يحتل مكانا في التأمل الفلسفي ، قد يقابل ما يسمى بالواقعية الساذجة في نظرية الادراك . وهذا الالحاد امر غير معقد ، اذا ما قيس بالحاد رجل كمالرو او سارتر . وهو في الوقت ذاته يؤكد لنا مرة اخرى تأثير الاصول المتوسطية عند كامو . والحق ان كامو قد بدأ منذ ذلك الحين بالتأكيد على موقفه من معضلة الشرور الكنسية ، والمسيحيين افرادا افرادا . غير ان هذا الالحاد الذي يعرضه هنا ، هو الحاد تأملي في اصوله . فهو يعرب عن نظرة ـ واعية او غير واعية ـ لاناس يصفهم بانهم بدائيون بسطاء . وهو يزعم ان هؤلاء الشمالفريقيين لا تعني شيئا بالنسبة اليهم الفاظ « كالاثم »(1) او « الفضيلة » او « التوبة » ، اذ لا تنطوي هذه الالفاظ عندهم على اي معنى تجريدي ، بالرغم من انهم يمارسون ادابا اخلاقية يومية ، يدعوها كامو بـ « قانون الشارع » الاوتوماتيكي . فهم (اي الشمالفريقيون) يتناولون ملذاتهم اكثر ما يتناولونها جماعات ، وفي المحلات العامة . وترتكز اخلاقياتهم على القواعد الابتدائية في حياة مجتمعية كهذه : كأن تعنى بالنساء الحوامل ، او ان عليك الا تسرق فتاة صديقك الخ ... وبغض النظر عن هذه الاداب الاخلاقية الابتدائية ، التي يدعمها الجانب الاجتماعي اكثر من الجانب الديني ، نجد كامو يقول : « ان هؤلاء الناس الذين استنفدتهم حياتهم الراهنة ، يعيشون بلا اساطير ، وبلا عزاء .» ان هؤلاء « البربر » ـ كما يدعوهم ـ والذين يجدون متعتهم على شواطيء الشمال الافريقي ، يتوقع منهم المرء الشيء الكثير في المستقبل . فهناك موقف مباشر سليم يمكن ان يتخذ حيال الحياة . ويمكن ان يخلق هذا الموقف ـ بالرغم من انه موقف لا واع ـ نوعا من الثقافة التي « تتقبل » فيها الكرامة الانسانية التعبير الملائم .

فلدينا هنا ، شيء يقترب من اسطورة الهمج السعداء ، التي تمعن فيها بعض الاذهان المضللة . فمن الواضح ان هؤلاء الذين لا حاجة بهم للاساطير هم الذين يزودون كامو بالاسطورة وبالرمز . وبالرغم من ان كامو قد ولد في هذا الجو الوثني ذاته ، الا انه يختلف عن هؤلاء الناس اختلافا جوهريا بفضل ثقافته واسفاره ودراساته . فهو يفهمهم بالقدر الذي يعجب فيهم ، ويشاطرهم حياتهم في كثير من المواضع ، غير انه منفصل عنهم بحقيقة فكره التأملي . فالموقف الغريزي فيهم لا يكون غريزيا فيه ، لا من حيث الطريقة ولا الدرجة . فالوعي الذي يدفعه للتحدث عنهم ، باعتبارهم « اناسا اطفالا » وباعتبارهم « بربرا » لهو وعي للاختلاف القائم بينه وبينهم . فهو ملقى في عالم خارج عالمهم ، بحيث استطاع ان يدرك انعدام الحاجة عندهم الى اية اسطورة ، دون ان يدركوا هم انفسهم ذلك .

ففي حدود عالمهم الذي يمجد كل ما هو مادي هامد ، نجد ان كامو يبرر استنكار التشنجات الذهنية عند جيد ، ولكن هذا الاستنكار انما هو ناشيء عن تشنجات ذهنية اخرى عند كامو نفسه وعلى مستوى اخر . وهذه التشنجات الذهنية هي امر لا محيد عنه عند كامو ، على انها غريبة عن موقف اولئك الذين اطراهم واعجب بهم كامو نفسه . ومن الانصاف ان نضيف ايضا ان كامو يلح دائما على ان هناك شيئا سيظل قريبا من هؤلاء « الناس الاطفال » ، بالرغم من تقبله لكل هاتيك النقاط. فهو يدعي في رسالة كتبها اخيرا ، بأن هذه المشابه هي التي تهيب بباريس المضللة الا تقبله الا مع بعض التحفظات ، وهي التي تجعله لا يستطيع ان يقدم الولاء لعالم باريس الاجتماعي او الادبي .

ومن هنا ، فان هذه الطقوس الواعية لعبادة « الرجل الحسي الاعتيادي » تذكرنا بانه حتى هذه الالحادية الساذجة التي نجدها عند كامو ، تعتبر امرا اقل عفوية مما كانت تبدو عليه . وان مجرد القول بان « لا ابمانه » هذا هو قضية غريزية ، من شأنه ان يحول « اللاايمان» هذا عن جوه العفوي.فان ما تنطوي عليه تلك الصفحات الثمانون من مواقف لا تعقيد فيها من جانب كامو ، معناه ان هذه المواقف تتضمن تأملا وعنصرا من عناصر الاختيار ، اكثر مما هو نفسه ، مستعد له . وقد يحتج قائل هنا فيقول ان كامو حتى في موقفه هذا عفوي ، بمعنى انه قد اخفق في رؤية ما يراه المسيحي ، وانه ليس بمقدوره ان يكون على صلة بالوعي المسيحي. اما انا ، فأظن ان تسويغا كبيرا تنطوي عليه هذه النظرة ، لاسيما في المرحلة الاولى من كتاب « الاعراس » . ومع ذلك فستظل هناك حقيقة واحدة ، هي انه ليس بوسع كامو ، منذ البداية ، ان يتصل بالدين المسيحي ، مهما الح الناس في ممارسة هذا الدين ممارسة غير مقنعة ولامرضية . ومن هنا ، ينبغي ان يظل موقفه رفضا للتعالى Transcedence ، تمييزا له (اي لهذا الرفض) عن الجهل بفكرة التعالى نفسها ، والتي يبدو انه ينسبها احيانا للشباب الجزائريين الذين نشأوا في جو وثني مطلق . فالوثنية التي يميطعنهاكامو الستار هي وثنية ما تزال بسيطة وغير معقدة نسبيا ، تستمد قوتها اكثر ما تستمدها من حب الحياة ومن الفزع من الموت ، غير انها لا تنطوي على اي عنصر تعسفي . وفي الحقيقة ، ان ما يقدمه الينا كتاب « الاعراس »

(1) ان ابلغ رد شهرته الجزائر بوجه الاثم .. أثم الحضارات اللاانسانية الزائفة هي ثورتها التي تسمو في مضمونها الروحي ـ الاخلاقي على مستوى الفرد الاوربي.

« المترجم »

من منشورات دار الآداب

الحي اللاتيني(رواية) للدكتور سهيل ادريس

الخندق الغميق (رواية) للدكتور سهيل ادريس

دار الآداب ص.ب ٤١٢٣

ما هو الا صورة اولية « للجحود العاطفي » ، والذي كان عليه ان يصفه لنا بعد عشرة اعوام من ذلك التاريخ ، باعتباره خصيصة تتميز عن هذا الالحاد المعاصر . فالحاده لا يعتبر انكارا للدين ، باسم العلم، على طريقة القرن التاسع عشر ، ولكنه جحود يرفض المطلق ، كما يرفض ما هو علمي وما هو ديني على السواء . وكما ان هناك جحودا ينطوي على بعض خصائص القرن التاسع عشر ، فان هناك جحودا معاصرا في جوهره ايضا . وجحود كامو هو من هذا الضرب الاخير . انه لم يكن هجوما نضاليا ، كما انه لا يبحث عن الدخول في معارك ، بل هو رفض راسخ يكتفي اكتفاء ذاتيا لئلا يقع في الماحكات الجدلية . وفي هذا الالحاد يكمن ذلك التسامح الذي يرى في الحلول الانسانية جوابا طبيعيا على المعضلات الانسانية ذاتها . والخصيصة الاخيرة في هذا الموقف الالحادي، هي تلك الحقيقة المرتكزة على ادراك ثابت للواقع . فبالنسبة لمؤلف « الاعراس » ، ان ما هو واقعي يمكن تجربته عن طريق الحواس . وليس من الضروري أن تكون جميعصور الالحاد مادية ، ولكن الحاد كامو ناشيء عن ضرورة اعادة كل شيء الى اسسه المادية .

ويرفض كامو اي عزاء او حل يقدمه الدين ، وبذلك يحرم نفسه من اي امل ، حتى الامل في معناه الاعتيادي ، وذلك عن طريق الاخذ اخذا حازما باسلوب « الانتباه الصافي » ـ كما يدعوه ـ بشأن الفناء الانساني . ومع ذلك ، فانه ، في الوقت نفسه ، لا يقبل ان يصف موقفه هذا بانه « استسلام ». اذ هو لا يرفض عقيدة دينية ، لكي يكون هناك « استسلام » ، بل على العكس من ذلك ، هو يفهم من كلمة « استسلام » انعدام اي رجاءفي العالم ، حيال ما يراه محض قيم روحية خداعة . فهو يقول ، ان الاغريق قد استنبطوا الامل ، باعتباره اعظم الشرور الانسانية من « صندوق باندورا » . وهو يجد في هذا رمزا متحركا لحقيقة ما هو « امل »» والذي يناقض الايمان العادي الذي هو بالتالي ما تعنيه كلمة « استسلام » . فالعيش دونما امل ، وتقبل ما هو مادي بدلا من رفضه لصالح الديمومة اللامادية الواقعة خارج حدود هذه الحياة هو ما يمكن تسميته ، بالضبط ، بالاستسلام .

وفي الصفحات الاخيرة من كتاب «الاعراس» ، يستخدم كامو فكرة « اللااستسلام » لكي يسند جاهدا محاولاته في دحض الراي القائل بان التنكر للامل ، لا يعني ضرورة ، امكانية هدم السعادة . انه يعرف السعادة بانها هي الانسجام البسيط الذي يربط الفرد بوجوده . فاية اسس للسعادة اشد رسوخا من اعتراف الفرد بهذا التناقض الظاهري

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
في ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش
نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي

المتماسك الذي يؤلف موقفه (موقف الفرد) في هذا العالم ؟ فالسعادة تنأتى من تلك العلاقة التي يتقبل فيها الفرد هذا الصراع الابدي القائم بين غريزته للحياة والموت الذي لا محيص عنه . وها ان لدينا الان امثلة متعددة يعرض فيها كامو لنقطة حرجة من تفكيره ، وذلك عن طريق شيء يشبه التلاعب بالالفاظ . فحجته تعتمد اكثر ما تعتمد على ما هو تطبيق شكلي لذلك الموقف الذي سبق ان وصفه كامو في اجزاء كتابه هذا ، وعلى تعريف السعادة بانها هي مجرد تلك العلاقة (اي العلاقة البسيطة بين الفرد ووجوده) . ولذلك ، فان نقضه المؤثر من الناحية البلاغية ، لتطبيق الامل تطبيقا عاديا ولقضية « الاستسلام » ، كل ذلك انما يعتمد اعتمادا غير مضمون النتائج على فرضية ان العزاء الروحي محض وهم ، وهي تلك الفرضية التي لم تمحص تمحيصا حقيقيا . ويبدو واضحا ان ما يعرضه كامو هنا على اساس انه حجة دامغة ، لم يكن سوى قرار تعسفي . فهو اذ يتخذ هذا القرار ، لم يعد لديه ادنى شك في قيمة الموقف الذي سينتهي اليه ذلك القرار . ويزعم كامو انه تمكن من الحصول على نوع من السعادة تبدو الفكرة العامة عن السعادة بالقياس اليها فكرة هشة . وهذه « السعادة القصوى » لا يمكن شرحها بسهولة ويسر ، اذ تبدو كما لو انها تفر من اي تحديد او تعريف . انها تشبه تلك الطمانينة الرواقية التي تنشأ عن عدم الاعتراف باستحالة تحقق السعادة . وفي مقدورنا ، ان نتذكر هنا قولا لـ « غراهام غرين » في كتابه «قلب المادة» ! «.. ان ترك المرء وحيدا مع اسوأ الاحوال، لهو امر يشبه السلام... » فسعادة كهذه ، حسبما يرى كامو ، من شانها ان ترضينا على مستوى ليس ادنى من مستوى التعبير العادي لكلمة السعادة.

ويبدو هذا الموقف ، كانه انكار لكل محتوى الحجج السابقة التي اوردها كامو في « الاعراس » ، اذ يقدم لنا الرواقية ، كبديل عن اللذة الحسية العابرة . فان ما يعتزم كامو القيام به ، انما هو وضع جذور السعادة الرواقية القصوى في موضع مادي. فهو يعيد التاكيد على قيمة السعادة المادية التي هي سبيل السعادة القصوى. فالامر الوجيز للذة المادية يقدم لنا ابعاد انسانية حقيقية لهذا الموقف الرواقي ، اذ يجعل حقيقة هذا الموقف وقيمته زائلتين كالانسان تماما : « ما الذي اصنعه بحقيقة زائلة حتى ولو شئت ذلك ؟ .. ان هذه الحقيقة لم تفصل بحسب مقياسي .. والرغبة خداع لنفسي .»

Dimentions

واخيرا ينبغي الا يفوتنا ان كامو لا يفصل هذا الشكل من اشكال الرواقية عن التمرد ، باكثر مما يفصلها عن الاسراف في شهوات الحس. فالتمرد هنا على هذا النحو ، وفي هذه المرحلة ، ما يزال مدركا غامضا سلبيا . بيد اني اظن ان بوسع المرء ان يرى هذا الرفض للمطلق ، من جانبه المتحدي المتمرد ، وهو في اطار هذه الحدود المعتمة لهذه المقالات. ومن هنا امكن القول ، ان البحث عن السعادة ، وهو ذلك الخيط الدائم الذي ينتظم كتاب « الوجهة والموضع » وكتاب « الاعراس » ، ان هذا البحث يصل في النهاية الى غايته عن طريق « تقبل » الاستمتاع بكل ما هو مادي ، ومن ثم التمرد علىكل شيء من شانه ان يبرقع بالاستار ماساة الوضع الانساني. ويختتم كامو كتاب « الاعراس » بتعبير منمق يعبر عن مبدأ كامو في السعادة . وهو تعبير فيه تلاعب بالالفاظ اذ يقول : « . وانى لنا ان ندشن الانسجام بين الحب والتمرد ؟ ابالارض !.. الا ان جميع اصنامي ذات ارجل من طين ، في هذا المعبد الجبار الذي هجرته الالهة ! »

القاهرة — ترجمة محيي الدين اسماعيل